التطوف، وجاءت تبتغي من اسرار التصوف، ومتى تزين هيبة السبع الشداد، بحانوت الحداد، او تنظر
احكام الاعتكاف، بدكان الاسكاف، او يتعلم طبع المثقال، بحانوت البقال، والظن للغالب، وقد
تلتبس المطالب، انكم ارمتموها، لما اصدرتموها، باعمال التشوف، فطردت حكم الابدال، غايته عنا
يلزم من الجدال، وسمت الشي صادا، وعينت لزرع الوصية حصادا، والله يجعل الحب عند ظن من نظر
بمرآته، او وصفه ببعض صفاته، وهي تزلق عن صفاته، فالتصوف اشرف، وظلالا له اورف، من
ان ينال كلف بباطل، ومغرور بسراب ماطل، لابر بارها طل، ومفتون بحال حال او عاطل، ومن قال
ولم يتصف بمقاله فعقله لم يبرح عن عقاله، وحيا لانتقاله، ما يعد له في انتقاله، وعلى ذلك، وبعد
تقرير هذه المسالك، فقد عمرت يدها كي لاتعود بها مسرا بعد اعمال السفر، او ترى انها قد طولبت
بذنب الغلط المغتفر، واصبحت المراجعة بمجلس وعظ، فنحت به بابا حرج، الى انكار الامام ابي الفرج
وفن الوعظ لما سال الاخ هو الصديق المسعد، والبرق قبل غمام رحمة والمرعد، ولله در القايل
لست به ولم تبعد والاعتراض بعد ملازم، لكن الاسعاف لقصد لازم، وعامل عندا لاعتلال بالعذر
جازم، واغضاؤه ملتمس، وفضله لايخبو منه قبس، وعذرا ايها الفاضل، وبعد الاعتذار، عن
القلم المهذار، واغفال الحذار، واقرأ عليه من طيب السلام، ما يخجل ازهار الكمام، عقب الغمام
ورحمة الله من مملية على الكاتب، ولعلها تغنيه من عتب العاتب، ابن الخطيب، فاني كتبته والليل
دامس، وبحر الظلام طامس، وعادة الكسل لطبع خامس، والناغز بشكوى البرد هامس، والذبال لا
خانت، لايهتدي اليها الزائر المتهافت، يقوم ويقعد، ويفيق ثم يرعد، ويزمزم ثم يجحد، وربما صار ورقة
آس، او مبضع آسي، وربما اشبه العاشق في البوح بما يخفيه، وظهوره من فيه، لتمليه الامال، وتلويه
وتمنيه النواسم الهفافة بعد ما تحييه، والمطر قد تعذ دمعة الوطر، وساقه الخطر، ونعل في اليوم المنداة
لاينفصل التراك والطظر، والنشاط قد طوى منه البساط، والجوارح بالكلال تعتذر، ووظايف
الغد تنتظر، والفكر في الامور السلطانية جايل، وهي بحايل، ومثلي مفنوع به بالسبب، ومعذور في قصر الباع
وضعف المسير، والسلام، انتهى، وهذه البلاغة في الذروة ومن نثر لسان الدين رحمه الله قوله
ومما صدر عني في السياسة، حدث من امتاز باعتبار الاخبار، وحاز درجة الاشتهار، بنقل حوادث
الليل والنهار، وولج بين الكمايم والازهار، وتلطف لخجل الورد من تبسم البهار، قال سهر الرشيد ليلة وقد
مال في بحر النبيذ ميلة، وبحر وجهد ندماءه في جلب راحته، والمام النوم بساحته، فنبحت سهادهم
ولم يغن اجتهادهم، فقال اذهبوا الى طرف سماطها وربضها، وامهات قسمها، فمن عثرتم عليه من طارق
ليل، او ماء سيل، او ساحب ذيل بنلفوه، والامنة سوغوه، واستدعوه ولا تدعوه، فطاروا وجالوا
وتفرقوا ركبانا ورجالا، فلم يكن الا ارتداد طرف، او فواق حرف، واتوا بالغنيمة التي اكتسحوها والبضاعة
التي ربحوها، يتوسطهم الاشعث الاغبر، والالج الذي لايصبر، شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة
سبلته مشمطة، وعلى الفم من القبع مطر، وعليه ثوب مرقوع، لطراحق مليه وقوع، يهينم بذكر
مسموع، وينبي عن وقت مجموع، فلما مثل سلم، وما ابنس بعدها ولا تكلم، فاشار عليه الملك فقعد، وبعد
ان استجمر وابتعد، وجلس، فما استرق النظر ولا اختلس، اغمار كه فكره، معقودة بزمام ذكره،
ولحظات اعتباره، في تفاصيل اخباره، فابتدره الرشيد سايلا، وانحرف اليه مايلا، وقال ممن
الرجل، فقال فارسي الاصل، اعجمي الجنس عربي الفضل، قال بلدك، واهلك وولدك، قال اما الولد
فولد الديوان، واما البلد فمدينة الايوان، قال النحلة، وما اعملت اليه الرحلة، قال اما الرحلة فالاعتبار
واما النحلة فلام الجبار، قال فمن الذي اشتمل عليه ذلك، قال الحكمة فهي الذي جعلته اثيرا، واصحبت
فيه فراشا وثيرا، وسبحان الذي يقول ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا، وما سوى ذلك فتبع، ولي فيه
مصطاف ومرتبع، قال فتعاضد جذل الرشيد، وتنور كانما اغشي قطعة من الصبح اذا اسفر، وقال ما رأيت
كالليلة اجمع لامل شارد، وانعم بموانسة وارد، ياهذا اني سايلك، ولن تخيب بعد وسايلك، فاخبرني
ما عندك في هذا الامر الذي بلينا بحمل اعبايه، ومنينا بمراوضة ابايه، فقال هذا الامر قلادة ثقيلة، ومن
خطة العجز مستقيلة، ومفتقرة لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالشرع، يفسد الحكم في غير محله
ويكون ذريعة الى حله، ويصلحه مقابلة الشكل بشكله، ولو لم يكن سبعا اكالا تداعت سباع الى اكله، فقال
الملك اجملت ففصل، وبريت فنصل، وكلت فاوصل، وانثر الحب لمن يحوصل، واقسم السياسة فنونا
واجعل لكل لقب قانونا، وابدا بالرعية، وشروطها المرعية، فقال رعيتك ودايع الله قبلك، ومرآة
العدل الذي عليه جبلك، ولا تصل الى ضبطهم الا باعانة الله التي وهب لك، وانقصاها استدعت به
عونهم، وكفاية التي تكفيهم، تقديم نفسك عن قصد تقويهم، ورضاك بالسهو الشويهم، وحراسة
كهلهم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم، واخذ كل طبقة بما عليها وما لها، اخذا يحوطها اهلا، وبحفظ عليها
كمالها، وتنقص من بها الواجبات امالها، حتى تستشمر عليها رافتك وحنانك، وتوقف اوساطها في
النصب امتنانك، وتحذر سفلها سنانك، وخطر على كل طبقة منها ان تتعدى طورها، او تخالف دورها
او تجاوز بامر طاعتك نورها، وسد فيها سبل الذريعة، واقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة
وامنع اغنياءها من البطر والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتعمق والاطالة، ويفعل فيما يجري بين
الناس كلامها، ويرفع عن ما تنبز به اعلامها، فان ذلك يسقط الحقوق، ويريب العقوق، وامنعهم عن حش

الحرص والشره، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصاير المنتزه، واحملهم من الاجتهاد في العمارة
على احسن المذاهب، وانههم عن التحاسد على المواهب، ورضهم على الانفاق بقدر الحال، والتعري
من الفاقة فرده من المحال، وحذر البخل على اهل اليسار، والسخاء على اولي الاعسار، وخذهم من
الشريعة بالواضح الظاهر، وامنعهم من تاويلها منع القاهر، ولاتطلق لهم التهجم على من انكروا امره
في بواديهم، وكف عنهم الكف تعديهم، ولاتبح لهم تغيير ما كرهوه بايديهم، ولتكن غايتهم فيما
توجهت اليه ابايتهم، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم، انهاوه الى من وكلته بمصالحهم من نقاتك
المحافظين على اوقاتك، وقدم منهم من امنت عليهم مكره، وحمدت على الانصاف شكره، ومن كثر
حياوه من التانيب، وقابل الهفوة باستقالة المنيب، ومن لايخطى عندك محله الذي حله، فربما
عقد المبرم لحله، وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة، واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة، وان ثار
جرادهم، واختلف في طاعتك مرادهم، فتحصن لثورتهم، واثبت لفورتهم، فاذا اسالوا وسلوا
وتفرقوا وانسلوا، فاحتقر كثرتهم، ولاتقل عثرتهم، واجعلهم لما بين ايديهم وما خلفهم نكالا، ولا
تترك لهم على حلمك اتكالا، ثم قال والوزير الصالح افضل عدتك، واوصل مددك، لانه الذي يصونك
عن الابتذال، ومباشرة الانذال، ويثب لك على الفرصة، وينوب في تجرع الغصة، واستحلال العقدة،
ويتمحض بانسته من امورك، ويغلب فيه الراي بموافقة مامورك، ولايسعه ما تمكنك المسامحة فيه
حتى تستوفيه، واحذر مصادمة تياره، والتجوز في اختياره، وقدم استخارة الله في ايثاره، وارسل
عيون الملاحظة على آثاره، وليكن معروفا بالاخلاص لدولتك، معتمدا الرضا والغضب برضاك وصولتك
زاهدا عما في يديك، موثرا لكل ما يزلف لديك، بعيد الهمة، راعيا للاذمة، كامل الآلة، محيطا بالايالة
رحب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحي والميت، موثرا للعدل والاصلاح، دربا
على الصلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرزا من النقد، جادا
عند لهوك، متيقظا في حال سهوك، يلين عند غضبك، ويصل الاسهاب بمقتضبك، قلقا من شكره
دونك وحده، نابالك الاصابة بعده، وان اعيى عليك وجود اكثر هذه الخلال، وسبق الى نقيضها
شي من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس وهدوءها، وان لا يرى منك رتبة الاراء قدره دونها
وتقوى الله تفضل شرف الانتساب، وهي للفضايل فذلكة الحساب، وساو في حفظ غيبه بين قربه
ونايه، واجعل حظه من نعمتك موازيا لحظك من حسن رايه، واجتنب منهم من يرى في نفسه الى الملك
سبيلا، او يعتقد من عيصه للاستظهار عليك قبيلا، او من كاثر مالك ماله، او من تقدم لعدوك استعماله
او من سمت لسواك آماله، او من يعظم عليه اعراضي وجهك، ويهمه نادر نجهك، او من يدخل غير اجابك
او من ينافس احدا ببابك، واما الجند فاصرف التقدم منهم للمقاتلة، والمكايدة والمخاتلة، ولستوف
عليهم شرايط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووف ما اوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند
الغنا بالعلفة والطعمة، ولا تكرم منهم الامن اكرم عناوه، وطاب في الذب عن ملكك ثناوه، وول عليهم
النبهاء من خيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتتان باهليهم وديارهم، ولاتوطيهم الدعة مهادا، وقدمهم
على حصصك وصونك مهما اردت جهادا، ولاتلن لهم في الاغماض عن حسن طاعتك قيادا، وعودهم
حسن المواساة بانفسهم اعتيادا، ولاتسمح لاحد منهم في انفصال شي من سلاح استظهاره، او عرض اشتهاره
وليكن ما فضل عن شبعهم وريهم، مصروفا الى سلاحهم وزيهم، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم، من غير اعتبار
لاثمانهم، وامنعهم من المستغلات والمتاجر، وما تكسب به غير المشاجر، ويكون من الغوار اكتسابهم
وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، ان تطعم من غير اصطيادها، واعلم انها لاتبذل
نفوسها من عالم الانسان، الا لمن يملك قلوبها بالاحسان، وفضل اللسان، وعدل حركاتها بالتقويم، ووزنها
بالميزان القويم، ومن تثق باشفاقه على اولادها، ويشتري رضى الله بصبره في طاعته وجلادها، فاذا استوفت
هذه الخلال، تقدمتك الى مواقف التلف، مطيعة دواعي الكلف، وانفقت منك بحسن الخلف، ولتسبق
الى تمييزهم استباقا، وطبقهم طباقا، اعلاها من تاملت منه في المحاربين عنك اخطارا، وابعدهم في مرضاتك
مطارا، واضبطهم لما تحت يده من رجالك حزما ووقارا، واستهانة بالعظايم واحتقارا، واحسنهم لمن
تقلده امرك من الرعية جوارا، اذا اجدبت اختبارا، واشدهم ملكا بما طلبه من ممارسته من الخوارج عليك مرارا
وبعده من كانت محبته لك ازيد من نجدته، وموقع رايه انفع من موقع صعدته، وبعده من حسن انقياده
لامرك، واحماده لاارايك، ومن جعل نفسه من الامر حيث جعله، وكان صبره على ما عراه اكثر من اعتداده
بما فعله، واحذر منهم من كان عند نفسه اكثر من موقعه في الانتفاع، ولم يستحي من التزيد باضعاف ما بذله
من الدفاع، وشكى البخس فيما انعقد عليه من فوايدك، وقاس من عوايد عدوك وعوايدك، وتوعد باستقالته عنك
وانتحاله، واظهر الكراهية لحاله، واما العمال فانهم ينبئون عن مذهبك، وحالهم في الغالب شديد
الشبه بك، فعرفهم في امانتك السعادة، والزمهم في رعيتك العادة، وانزلهم من كرامتك بحسب
منازلهم في الانصاف، بالعدل والانصاف، واحلهم من الحظاية، بنسبة مراتبهم من الامانة والكفاية
وفقهم عند تقليدك للارجا، مواقف الخوف والرجا، واقرر في نفوسهم ان اعظم ما به اليك تقربوا، وفيه تدربوا
وفي سبيله احجموا او اعربوا، اقامة حق، ودحض باطل، حتى لايشكو غريم مطل ماطل، وهو اثر لديك من كل
رباب هاطل، وكفهم من الرزق الموافق عن التصدي لدفع المرافق، واصطنع منهم من تيسرت كلفته وقويت

King Saud University
Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)